

ورقة للندوة المشتركة بين جمعية المستقبل النسائية ومنتديات البحرين، بتاريخ 9/12/2004م في ذكرى اليوم العالمي للمتطوعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على خير خلقه أجمعين محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

مرض الحسنان، فذخر علي عليه السلام أن يصوم ثلاثة أيام إن شفيأ، فلما خرجا من مرضهما قرر علي البدء في الصيام، فقررت معه الزهراء، وكذلك الحسن وكذلك الحسين، وفي اليوم الأول لصيامهم أعدت لهم الزهراء وجبة الإفطار، وهم على المائدة وقبل أن يشروعوا في إفطارهم، وإذا بطارق يطرق الباب قائلاً: مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني مما رزقكم الله يا أهل البيت، فقال علي خذوا حصتي إلية، وقالت الزهراء خذوا حصتي إلية وقال الحسنان مثل قولهما، وفي اليوم الثاني وعند ساعة الإفطار وقبل أن يبدأ أهل البيت في إفطارهم وإذا بطارق يطرق الباب قائلاً: يتيم من أيتام المسلمين، أطعموني يا أهل البيت مما رزقكم الله، فقال علي خذوا نصيبي إلية وقالت الزهراء مثل قوله وقال الحسنان مثلهما،

وفي اليوم الثالث حدث في ساعة الإفطار مثل ذلك حيث طرق الباب أسير، قائلاً أطعموني يا أهل البيت، فقال علي خذوا نصيبي إلية وقالت الزهراء مثل قوله وكذلك الحسنان، ففطر أهل البيت لليوم الثالث على التوالي على الماء المقراح، فلما ذهب علي بالحسنين إلى المسجد ونظر رسول الله (ص) إلى ولديه الحسنين، فقال ما أشد ما أرى في ولدي، فأخبره علي بالقصة، فذهب معهم إلى دار فاطمة فرآها وكما تقول الرواية وقد التصق بطنها بظهرها، فتألم النبي لما رآه منهم، وإذا بالوحي ينزل مجسدا لهذا الموقف النبيل من أهل البيت قائلاً: "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا" 8/الإنسان. هكذا يقول أغلب المفسرين حول أسباب نزول هذه الآية، وكما تلاحظون أن القرآن الكريم قد مجد العمل التطوعي من قبل أهل البيت، وجعله قرآنا يتلى آناء الليل وأطراف النهار ابد الدهر. وهذه الآية نزلت في سورة الإنسان التي تعطي نموذجين متقابلين للشخصية الإنسانية، شخصية الأبرار، وشخصية الكفار، وإذا كانت الأولى في القمة فإن الثانية في الحضيض. يقول تعالى: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا" إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا" إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا" إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا" إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا" 1-5/الإنسان.

قيمة العمل التطوعي

القصة أعلاه تبين القيمة التي يعطيها الإسلام للعمل التطوعي، والذي يعرف بأنه كل جهد أو مال أو إمكانية يبذلها الإنسان لصالح الآخرين، دون أن يتوقع منهم مقابلا، سواء أكان هذا المقابل ماديا أم معنويا، ودون النظر حتى إلى جنس أو لغة أو حتى دين ومذهب الآخرين، نعم يشترط الإسلام قصد القربة لله سبحانه وتعالى لكي يسجل هذا العمل في رصيد المرء في الآخرة، وهذا واضح في الآية الكريمة: "إنا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا". والمتابع لآيات القرآن الكريم التي تحت على الإيمان يرى الربط الأكيد الذي يقيمه القرآن بين الإيمان والعمل الصالح، والعمل الصالح هو كل عمل يقوم به الإنسان لصالحه أو صالح الآخرين سواء أكانوا على قرابة منه أم لا، يشتركون معه في البلد أو الدين أو الأرومة أم لا يشتركون، والتدقيق في ألفاظ هذه الآيات المباركات يرى أن المقصود بالعمل الصالح هو ما شملت منفعته الآخرين. وبذلك نفهم أن الإيمان من دون العمل لصالح الناس لا يعد ذا قيمة في ميزان القرآن الكريم. وردت كلمة الصالحات في القرآن الكريم 62 مرة، وفي 58 آية ذكرت فيها هذه اللفظة يربط القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الصالح، وهذا ما يجعلنا نقول أن العمل التطوعي في الشأن العام، مما يعد صالحا في الدين والعرف العقلائي عند الناس الأسيواء، هو ما يعد من كمال الإيمان وتمامه. فلا إيمان إلا بالعمل الصالح. وللتكامل بين الإيمان والعمل الصالح عواقب في الدنيا والآخرة، وهذه مجموعة من الآيات التي تسلط الضوء على هذه النتائج.

1/ يقول تعالى: "وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوا به متشابهها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون" 25/البقرة.

وواضح من الآية المباركة أنها تعطي المؤمنين والمقائمين بالعمل الصالح للمجتمع تقديرا كبيرا، وحياة رغيدة وتجعلهم مخلصين في ذلك.

2/ ويؤدي الإيمان والعمل الصالح لخلق جو من المحبة والوثام بين المجتمع، إذ يقول تعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا" 96/مريم.

3/ كذلك فإن الإيمان والعمل الصالح، والذي منه العمل التطوعي لخدمة الناس، يسبب التوسعة في الرزق وتصحيح المسارات الخاطئة. يقول تعالى: "فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم" 50/الحج.

4/ وترى بصورة دائمة أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم البديل الحضاري للمجتمعات التي يسود فيها الطغيان والفساد، يقول تعالى: "وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم المفسقون" 55/النور.

5/ بل أن المجتمع الذي يسوده الإيمان والعمل الصالح، تناسب أموره بشكل تلقائي لحصد أفضل النتائج، والانتفاء في أعمالهم بأحسن الأعمال.

يقول تعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولتجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون" 7/العنكبوت.

6/ ولما يمكن للمؤمنين والعاملين للصالحات إما أن يكونوا من الصالحين، المؤهلين للريادة في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين" 9/العنكبوت.

ويقول أيضا: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية" 7/المبينة.

النجاح عاقبة العمل التطوعي

ويربط الإسلام بين النجاح في الدنيا والآخرة، والسعي للعمل الخير في المجتمع، فالناجحون كما يرى القرآن الكريم هم الذين يسعون لنشر الخير في المجتمع، ولما شك أن من ابرز أعمال الخير العمل التطوعي، سواء ببذل المال أو الجهد أو ما يتوفر لدى المرء من إمكانيات.

يقول تعالى: "ولم تكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" 189/البقرة. والمفلحون هم الناجحون في الدنيا والفائزون في الآخرة.

ويحرض القرآن الكريم على فعل الخير كأحد العناصر التي تقود إلى النجاح، إذ يقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون" 77/الحج.

والمتابع لسيرة الناجحين الذين حققوا انجازات على مستوى البشرية كلها يجد أنهم يتميزون بالعطاء الكبير للناس دون أن ينتظروا منهم جزاءا ولما شكورا.

قوة المجتمعات في عملها التطوعي

وتتقدم المجتمعات كلما ازداد العمل التطوعي فيها، وقد كان المسلمون أقوياء فيما مضى من الزمن حين كان العمل التطوعي جزءا من يومياتهم، وحين كان الكثير من المسلمين يقومون ببذل الجهد التطوعي لصالح الآخرين، وقد حدثنا التاريخ، عن العمل الكبير الذي قام به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بحضر الكثير من آبار الماء ثم جعلها وقفا على الناس، ويعد باب الوقف من أكبر المشاريع الخيرية التي يقدمها الإنسان لمجتمعه سواء في حياته أو بعد مماته، وهناك تشريعات واسعة في القانون الإسلامي لمسألة الوقف ما يدل على أن الإسلام يعتبر الوقف عملا ملازما للمسلمين وجزءا من أولوياتهم، وكان الناس يحفظون الحديث النبوي الشريف الذي يؤكد أن ابن آدم إذا مات انقطع عن الدنيا إلا إذا خلف ولدا صالحا يدعو له أو صدقة جارية "ينتفع بها الناس (والوقف من ابرز مصاديقها)، أو علم ينتفع به الناس.

واليوم يرجع تقدم المجتمعات الغربية على الشرقية، في احد أسبابه، لازدياد العمل التطوعي والفعل الخيري في تلك المجتمعات، وإن كانت عدوانية اتجاه المجتمعات الأخرى، وهنا أورد بعض المعلومات التي تؤكد تعاضم العمل التطوعي في تلك المجتمعات:

جاء في الدليل الإحصائي للنشاط التطوعي (الخيري) في الولايات المتحدة الأمريكية لعام 2001م، ما يلي: بلغ مجموع التبرعات لعام 2001 في الولايات المتحدة 212 بليون دولار بارتفاع طفيف على العام 2000. وقد بلغت نسبة التبرعات من الماخذ 160,72 بليون، وتمثل التبرعات من الوصايا 16,33 بليون وتبرعات المؤسسات الوقفية 25,9 بليون، وبلغت التبرعات للمنظمات الدينية 80,96 بليون دولار، والتبرع للتعليم بلغ 31,84 بليون وللمراكز الصحية بلغ 18,43 بليون وللخدمات الإنسانية بلغت التبرعات 20,71 بليون دولار، وللصن والثقافة 12,14 مليون

دولار، وللحيوانات والمبيئة بلغت 6,41 بليون.

وفي استطلاع أن 89% من الأسر الأمريكية يعطون تبرعات بمتوسط 1620 دولارا للسنة، ويتطوع 44% من البالغين بوقته لصالح الأعمال التطوعية، والمتطوعون يعطون 3.6 ساعة تطوع بالأسبوع.

وذكرت تقارير من بريطانيا أن 30% من البريطانيين يتبرعون للأغراض الخيرية ومتوسط التبرع 4,4 جنيه أسبوعيا، 229 سنويا، وفي استقصاء من كندا أن 91% من عينة الاستقصاء قدموا تبرعات خلال عام 2000م. ويبلغ عدد المتطوعين الهولنديين 3,5 مليون متطوع.

تراجع العمل التطوعي

ترى ما الذي جعل العمل التطوعي يتراجع عن معدلاته الطبيعية في حياة المسلمين سابقا، مع ما نراه من وفرة في بعض المجتمعات الإسلامية كالمجتمعات الخليجية مثلا؟!

لاشك أن هناك مجموعة من العوامل التي أدت إلى ذلك، منها عدم تبني النظام الإسلامي في الحياة العامة، وحتى في مجال التشريع تم استبدال الفقه الإسلامي بقوانين وضعية، لتعمق البعد الإيماني في شخصية المجتمع، لكن هنالك عوامل تفصيلية جديرة بالذكر هنا:

1/ سيطرة الطبيعة الأولى للنفس على الإنسان، مما يؤدي إلى تضخم الذات على حساب المجتمع، والمقرآن الكريم يشير في آياته أن الطبيعة الأولى للنفس تمنعه من الانفتاح على الآخرين وتقديم يد المساعدة والعون لهم، وإن علاج هذا المعوق عن العمل التطوعي بحاجة إلى تثقيف قرآني ببرامج الإسلام في الارتقاء بشخصية الإنسان من طبيعته الأولى إلى رحاب الإيمان والمتحضر، عبر العطاء للآخرين.

يقول تعالى: "فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" 16/التغابن.

2/ المفهم الخاطئ في تقدير قيمة الأعمال التطوعية، حيث ينظر البعض إلى الأعمال العبادية، كالصلاة والصيام والحج والعمرة وزيارة الأماكن المقدسة التي تتميز بطابعها الفردي، بأنها أعظم القربات إلى الله سبحانه وتعالى، بينما نجد أن الإسلام يعتبر العمل التطوعي من أكبر القربات عند الله سبحانه وتعالى، وقد رأينا كيف أن المقرآن الكريم يمجّد العمل التطوعي الذي قام به أهل البيت مع المسكين والميتيم والأسير، ونجد عليا عليه السلام يوصي أبنائه حين وفاته بالعمل لأصلاح المجتمع باعتباره أفضل من الأعمال العبادية المستحبة، وهو ينقل لهم توصيات النبي (ص)، فيقول لولده: "وأعلموا أن إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام". ولما شك أن إصلاح ذات البين من الأعمال التطوعية، كالإصلاح بين زوجين أو اخوين أو صديقين أو جماعتين.

وقد نقل عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: "لإن أهول بيتا من المسلمين، اكسوا عورتهم، واشبع جوعتهم، وأحفظ ماء وجههم، أحب إلي من حجة وحجة وحجة، حتى عد سبعين حجة".

وهذا ما يكشف عن قيمة العمل التطوعي في الإسلام، وتفضيله على العمل العبادي الفردي المستحب، بل يعتبر العمل التطوعي من أكبر العبادات.

3/ قلة التشجيع الاجتماعي للقائمين على العمل التطوعي، مما يؤدي إلى زهد الآخرين فيه، وفي بعض المجتمعات يتعرض القائمون بالعمل التطوعي إلى سوء ظن بهم وتشكيك في نياتهم ومقاصدهم، وقد تكون هناك بعض الفئات التي تستفيد من مجالات العمل التطوعي للكسب السياسي أو المادي بشكل عام، لكن هذا لا يعني أن القائمين على العمل التطوعي يستهدفون بصورة دائمة الترويج لمشاريعهم، وقد وضع الإسلام قيد "لا تزيد منكم جزاءا ولما شكورا" لكي لا ينظر للعمل التطوعي على أنه لغاية أخرى سوى وجهه الله الكريم، وخدمة للناس.

وفي الوقت الذي نجد فيه بعض المجتمعات تنسى الذين قدموا خدمات جليلة من أجلها، ذرى المجتمعات المتقدمة تحتفي بالذين قدموا خدمات لها بشكل كبير، فتطلق أسماءهم على أهم الشوارع في بلدتهم، وتسمي جامعات أو صالات في الجامعات والمستشفيات، وما شابه ذلك بأسمائهم، بل يخصص في بعض المجتمعات أيام للاحتفال بذكرهم.

4/ سوء التخطيط للعمل التطوعي، والمقصود بذلك، عدم النظر لأولويات المجتمع في الأعمال الخيرية، مما يجعل تضخما في جانب ونذره في جوانب أخرى، فقد تتضخم الأعمال التبرعية للمؤسسات الدينية المصرفة كالمساجد والحسينيات والمدارس الدينية وهو أمر مطلوب، وفي ذات الوقت تنذر الأعمال التبرعية في مجال الخدمات العامة للناس، أو المجال العلمي والمعرفي العام أو المجال الصحي، أو المجال الأمني والاجتماعي، وهي مجالات لا تقل أهمية في حياة الناس عن المؤسسات الدينية بل ومكملة لها.

إن قيمة التخطيط للعمل التطوعي، تكمن في توفيره نظرة متوازنة لحاجات المجتمع وترتيب أولوياته، ما يعني إحساس المجتمع بالدور الذي يساهم به العمل التطوعي سواء في الحياة الدينية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو غيرها.

وخلاصة القول: أن الإسلام يعطي العمل التطوعي اهتماما كبيرا، وما هو مطلوب منا كأفراد ومجتمعات أن نعلي من قيمته، ونسعى

لتطوير أدواته في حياتنا اليومية.